الأدب والبرّ

□ الأدب والبرّ □

الأدب .. قوام هذا الدين ، وأدب العلم أكثر من العلم .

قال ابن المبارك : إذا وصف لي رجلٌ له علم الأولين والآخرين ، لا أتأسف على فوت لقائه ، وإذا سمعت رجلًا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتاسف على فوته .

وقال : لا ينبل الرجل بنوع من العلم ، ما لم يزين علمه بالأدب .

وروي عنه : طلبت العلم فأصبت فيه شيئًا ، وطلبت الأدب فإذا أهله قد ماتوا[١] .

وقال - رحمه الله - : طلبنا الأدب حينما فاتنا المؤدبون .

وقال : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منّا إلى كثير من العلم .

اعلم يا أخي .. من أساء الأدب على الباب ، رُدَّ إلى سياسة الدوابّ[٢]

○ الأدب مع الله عز وجل ○

يرحم الله من قال : من صاحب الملوك بلا أدب ، جرَّه ذلك إلى الهلاك والعطب .

وليس كأدب الأنبياء مع مولاهم ..

فانظر إلى سيدهم ، وسيد ولد آدم ، رسول الله ﷺ يقول عنه ربه : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ [النجم : ١٧] .

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣ / ٥٥٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

قال ابن القيم :

إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ، إذ لم يلتفت جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب ، والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلع أمام المنظور ، فالالتفات زيغ ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة ، فكمال إقبال الناظر على المنظور ألّا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يتجاوزه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ ، تواطأ هناك بصره وبصيرته ، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته ، فهو أيضا حق مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى** ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره[١] .

فهذا رسولنا ﷺ لما تأدب مع الله عز وجل ، ووقف عند حده رفعه الله رفعة ما بعدها رفعة ، فأعطاه الله المقام المحمود .

أُفق وضيء طليق مرفرف عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصره ..

هي لحظات خصّ بها القلب المصفى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته ، وكله شوق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

من تواضع لله رفعه . لمّا تأدب بصر نبينا ﷺ أثنى الله عليه ، ويسجل هذا في الكتاب الخالد ، وهل بعد هذا من جزاء ؟!!

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، الذي جاء ربه بقلب سليم .

---

(١) مدارج السالكين (٣٨٢/٢) .

عن ابن عباس أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قالوا : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[1] [آل عمران : ١٧٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « لما ألقي إبراهيم - عليه السلام - في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

هذا الذي لم يتزود إلا التسليم ، قال الله تعالى للنار : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

فلما رأينا محبا في بيداء الوجد يهيم : ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

قال السدي : كان معه في النار مَلَك الظل .

لم يلتفت إبراهيم حتى إلى جبريل ، وسلّم لله ، فاستحق أن يكون خليلًا للرحمٰن . وهمّ بذبح ولده ، وآثر الله على من سواه ، فآثره الله على من سواه .

وتعالَ أخي .. إلى العلماء الذين تأدبوا مع ربهم ، وخافوه ، وما خافوا سواه .

من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وقره الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

انظر إلى الحافظ الصادق القدوة العابد ،عبد الغني المقدسي الذي كان لا يصبر على إنكار المنكر إذا رآه .

ذكر أن العادل حاكم مصر قال : ما خفت من أحد ، ما خفت من هذا . فقلنا : أيها الملك ، هذا رجل فقيه . قال : لمّا دخل ما خُيل إليّ إلا أنه

---

(١) رواه البخاري .

سبع[1] .

قال أبو بكر بن أحمد الطحان : كان بعض أولاد صلاح الدين ، قد عملت لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ عبد الغني الطنابير فكسرها ، قال : فحدثني الحافظ قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عصيّ فخففت المشي ، وجعلت أقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فلما صرت على الجسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل وقبل يديّ . وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[2] .

لمّا هابوا الله وحده هابتهم الملوك .

انظر إلى الإمام الحسن البصري.

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيت فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلم ثم جلس معظما لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إليّ كتبًا أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير ، فتكلم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده - أي يريد إرضاءه - فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد . قال : أقول يابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله ، فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٤ -٤٥٥) .

أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو ابن هبيرة ، إني أخوفك مقامًا خوفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ [إبراهيم : ١٤] يا عمرو بن هبيرة ، إنك إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك يزيد بن عبد الملك ، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعبرته ، فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما فأكثر في جائزة الحسن ، وأنقص جائزة الشعبي ، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته ، ولكن أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه(١) .

وانظر إلى ابن أبي ذئب ، عالم المدينة .

لما حج المهدي ، دخل مسجد النبي ﷺ ، فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال ابن أبي ذئب : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دعه ، فلقد قامت كل شعرة في رأسي(٢) .

وهذا عليان ، وكانوا يعدونه من مجانين الكوفة . وما هو بذلك ، إنما هو من عبادها.

يقول له المأمون : يا عليان هل من حاجة فأقضيها ؟ قال : نعم ، أريد أن تنسىء في أجلي ، وتتجاوز عن سيئاتي ، وتغفر لي خطيئتي . فبكى المأمون ، وقال : يا عليان ليس هذا إليّ ، أنا لا أقدر أستخلصه لنفسي ، فكيف أستخلصه لك ؟ قال عليان : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يجعل أحدًا فوقك

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص ٧٧ تأليف أحمد رضوان أبي الخير .
(٢) مواعظ ومواقف ص ١٠٥ .

في عصرنا ، فيجب عليك ألا يكون أحد أطوع لله منك . فقال له : عظنا يرحمك الله . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أكرمك بما أكرمك به يحب أن تحب له ما أحب ، وتبغض له ما أبغض ، فوالله ، لقد أحب دارًا أبغضتَها وأبغضَ دارًا أحببتها ، كأنما أردت خلاف ربك ، أو أردت سواه ، فاعلم يا أمير المؤمنين ، أن الذي في يديك لو بقي على من كان قبلك إذًا لما صار إليك ، وهكذا هو صائر إلى من بعدك ، فاتقِ الله في خلافتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أمته . فبكى المأمون ثم أمر أن يحشى فمه درّا وياقوتا ، فقال له : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : فأعفاه ثم خرج من عنده ، فقيل له : لِمَ لمْ تقبل جوائز أمير المؤمنين ؟ قال : خشيت أن أمنع جوائز رب العالمين . ثم ولي وهو يقول :

كم ملوك عن الدار تفانوا وخلت منهمُ هناك البيوتُ
فسلِ الربع والمنازل عنهم هل تُنبِّيكَ عنهمُ أم سكوتُ
حب من شئت فهْو بالموت فانٍ غير أني أحببت من لا يموت[1]

وانظر إلى المحدث الزاهد . شيخ الإسلام بنان الحمال .

امتحن في ذات الله ، فصبر ، وارتفع شأنه ..

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر ، حكاية بنان الحمال ، وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يلقى بين يدي السبع ، قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمك؟ قال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها. ثم ضُرب سبع دِرر .

ذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن القاضي أبا عبيد الله ، احتال على بُنان حتى ضربه سبع درر ، فقال : حبسك الله بكل درة سنة . فحبسه ابن طولون سبع سنين .

والجزاء من جنس العمل[2] .

---

(١) مواعظ ومواقف ص١٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٨٩) ، البداية والنهاية (١١ / ١٥٨ - ١٥٩) .

وانظر يرحمك الله إلى سلطان العلماء العز بن عبد السلام .

قال الشيخ الباجي : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان أيوب الملك الصالح ، في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى ذلك ؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعم هذه المملكة . يناديه هكذا بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ [الزخرف : ٢٢] فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة ، قال الباجي : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع الخبر : يا سيدي كيف الحال ؟ فقال : رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . فقلت : يا سيدي أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدّامي كالقط .

وقد توفي – رحمه الله – في عهد الظاهر بيبرس ، ولما مرت الجنازة تحت القلعة ، وشاهد كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصه : اليوم استقرَّ أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه ، لانتزع الملك مني(١) .

وانظر يا أخي ، إلى هذا الشيخ الذي ذكر دينه ، ونسي دنياه إلى الشيخ حسن العدوي .

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا ، كان إسماعيل حفيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ،

---

(١) مواعظ ومواقف ص ١٥٥ – ١٥٦ .

مع عدة امتيازات في نظام الحكم بمصر ، وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي ، ولما كانت للمقابلة السَّنِيَّة تقاليد ، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتما على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، حتى لا يخطئوا في حضرة السلطان ، وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء ، فنسوا دينهم واشتروا دنياهم ، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا موجهين وجوههم إلى الخليفة كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا وهو حسن العدوي ، استحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ؛ دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ، والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس وأُسْقِط في يد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا ، ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدى ، فلابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما نَبعت من مكمنها قوية حارة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلع عليه دون سواه(١).

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

« إذا خاف الله العبدُ » قدم المفعول ؛ اهتماما بالخوف ، وحثًّا عليه ، « أخاف الله منه كلَّ شيء » من المخلوقات ، « وإذا لم يخفِ العبدُ اللَّهَ ، أخافه الله من كل شيء » ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان ، فكما شهد الحق بالتعظيم ، ولم يتعد حقوق الحكيم ، ألبسه الهيبة ، فهابه الخلق بأسرهم ، وحكم عكسه عكس حكمه(٢).

---

(١) مواعظ ومواقف ١٥٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (١/٣٣٢).

○ الأدب مع الأنبياء ○

يقول ابن القيم :

انظر إلى أدب الصديق - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه ، فقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ . كيف أورثته مقامه ، والإمامة بعده ؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك - جَمْزًا ، وسعيا إلى قدام .

فبكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي ، والله أعلم[1] .

والجزاء من جنس العمل ..

وانظر إلى أدب أمين هذه الأمة : أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - في يوم أحد ..

يقول الصديق : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل الله دونه ، وأراه قال : حمية ، قال : فقلت : كُنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إليّ ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المِغْفَرِ ، قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبكما » . يريد طلحة وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذاك من وجهه فقال : أقسم عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزم عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٩١ - ٣٩٢) .

صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثلما فعل في المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه - من أحسن الناس هتما .

انظر أدب أمين هذه الأمة ، لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه ،.. فماذا كان جزاء هذا الفم الطيب ؟

يقول الذهبي : ما رئي هَتْم قط ، أحسن من هتم أبي عبيدة . انقلعت ثنيتاه فحسن ثغره بذهابهما[1] .. فأصبح ثغره بعد الهتم أفضل منه قبل ذلك ..

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى أدب طلحة الخير ، طلحة بن عبيد الله ، أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أحد .

قال ابن إسحٰق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ؛ ليعلوها ، وكان قد بدّن[2] ، وظاهر بين درعين[3] ، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى عليها .

فكان ثواب طلحة الخير ، على هذا العمل الجليل الجنة ، فقد روى ابن إسحٰق أن النبي - ﷺ - قال : بعد أن حمله طلحة إلى الصخرة - : « أوجب طلحة » .

كما أن نهوض طلحة بالنبي ﷺ كان بركة عليه ، أو تسبب ذلك في علاج إحدى رجلي طلحة من العرج الذي أصابها أثناء دفاعه عن النبي ﷺ بعد النكسة .

---

(١) البداية والنهاية (٥ / ٣١) ، سير أعلام النبلاء (١ / ٨) .

(٢) ضعف وأسن .

(٣) لبس درعًا فوق درع .

وذلك أن طلحة عندما حمل النبي ﷺ تكلف استقامة المشي ؛ لئلا يشق على النبي ﷺ فاستوت رجله العرجاء ، لهذا التكلف ، فشفي من العرج ، ويظهر أن سبب العرج الذي أصاب طلحة انفراط في الورك ، وهذا الانفراط يسبب قصرًا في الرجل ، ولا يزول هذا إلا بعد عودة ما انفرط إلى مكانه ، وهذا لا يعود إلى مكانه إلا بعملية شد عنيفة تعيد العضو المفروط إلى مكانه ، ولكن تكلف استقامة المشي ناب عن هذه العملية ، فعادت الورك إلى حالتها الطبيعية[1] .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رفع النبي ﷺ رفع عنه العرج .

وانظر إلى صِدِّيق الأنصار .. سعد بن معاذ - رضي الله عنه - لما تأدب مع النبي ﷺ أثناء الحكم .. كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟! .

لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ، قال له النبي ﷺ : « احكم فيهم يا سعد » . فقال إن رسول الله ﷺ أحق بالحكم . فقال ﷺ : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » .

غير أن سعدًا - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحب أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد الأوسِ وبني قريظة ، بأن حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش .

فقد وقف الحَكَم الشاب الجريح سعد بن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجه حديثه إلى قومه الأوس خاصة ، وإلى مَنْ في المعسكر عامة قائلًا : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام : «نعم»[2]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في

---

(١) سلسلة معارك الإسلام لباشميل معركة أحد ١٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٠) .

المعسكر ، ليستوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم .

فحكم أن تقتل المقاتِلَة ، وأن تُسْبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم .

ولما نطق سعد بن معاذ بالحكم قال له النبي ﷺ : « حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات » .

وعند البخاري : أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ، فنزلوا على حكم ، فردّ الحكم إلى سعد بن معاذ .

انظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

سعد بن معاذ ، الذي يقول ابن كثير في البداية والنهاية : إنه أُتي به على حمار ، عليه إكاف من ليف ، قد حمل عليه ، وحفّ به قومه - الأوس - فقالوا : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولّاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذَه في الله لومة لائم .

أدب رفيع من سعد أثناء الحكم ، وفي الحكم ، فجازاه الله من جنس عمله ، بأن رفع حكمه هذا ، وجعله حكمَ الله من فوق سبع سموات .

وانظر إلى أدب خطيب الأنصار ، ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ لما نزل قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »(١) .

---

(١) رواه البخاري .

روى الإمام أحمد ، عن أنس : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] وكان ثابت بن قيس الشماس رفيع الصوت ، فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزينا ، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا، هو من أهل الجنة » .

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه فقال : بئسما تعودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل[1] .

وعند ابن جرير : أن ثابتًا قال لرسول الله ﷺ لما أتاه : أنا صيِّت ، وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول** ﴾ [الحجرات : ٢] فقال له النبي ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة ؟ » . فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله ، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله ﷺ .

هذا الذي بكى ، وخاف من علو صوته – وقد جبله الله كذلك – على صوت رسول الله ﷺ ، وخاف وظن أنه من أهل النار ، فبشره الرسول ﷺ بالشهادة والجنة .

وقصة ثابت وسلب درعه مشهورة : إذ إنه بعد أن قتل ، أتى رجلًا من المسلمين في المنام وقال : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيع ،

(١) رواه أحمد في المسند .

إني لما قتلت أمس ، مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن في طِوَله ، وقد كفأ على الدرع برمة ، وفوق البرمة رحل .. ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت[١] .

فكان جزاء هذا الصوت ، الذي لم يرتفع على صوت النبي ﷺ ، أن يوقر ، وأن يسمع له ، ولو بعد موته .

والجزاء من جنس العمل .

إمام دار الهجرة مالك بن أنس ..

أما أدب مالك بن أنس – رحمه الله – إمام دار الهجرة ، مع رسولنا ﷺ– فإنه ما كان يُحدث حديث رسول الله ﷺ إلا على وضوء ، وما كان – رحمه الله – يركب دابة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دفن فيها رسول الله ﷺ . فوقره الناس حتى يقول أمير المدينة : لحملي غبار العقيق أهون عليّ من لقاء مالك .

وفي مالك قيل :

يَدعُ الجوابَ فلا يُراجعُ هيبةً والسائلون نـواكسُ الأذقــانِ
نور الوقار وعز سلطان التقى فهو المهِيبُ وليس ذا سلطانِ

تأدب مع النبي ﷺ فتأدب معه الناس ..
والجزاء من جنس العمل .

○ الأدب مع العلماء ○

يقول ابن جماعة الكناني : ليعلم طالب العلم أن ذله لشيخه عز ، وأن خضوعه له فخر ، وتواضعه له رفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٦١٢٦) .

الإجلال ، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علمه مني[١] .

ولننظر إلى ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - وإلى أدبه مع العلماء ..

عن الشعبي - رحمه الله - قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه ، فقال له زيد : خلِّ عنه يا بن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذللت متعلما فعززت عالما .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر إلى أدب مجاهد وعكرمة معه .

ولننظر إلى أدب الشافعي - رحمه الله - وليس كالشافعي في الأدب مع شيوخه .

يقال : إن الشافعي عوتب على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ... ولن تُكْرِمَ النفس التي لا تهينها[٢]

وقال الشافعي : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا هيبة له ؛ لئلا يسمع وقعها[٣] .

فلما تأدب الشافعي مع شيخه تأدب معه تلميذه الربيع بن سليمان ، فكان يقول : والله ما اجترأت أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبة له[٤] .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص٨٧ .

(٢) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) المجموع (١ / ٣٦) .

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٢٦) .

لسان حاله يقول :

طهرتمْ فَطُهِّرْنا بفاضِل طُهْركم وطبتمْ فمن أنفاسِ طيبكم طِبْنا

وانظر إلى أدب إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل مع شيوخه :

عن عمرو الناقد قال : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت: يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يحترمك فمالك لا تتكلم ؟ قال : وإن كان يكرمني فينبغي لي أن أجله .

قال قتيبة بن سعيد : قدمت بغداد ، وما كان لي همة إلا أن ألقى أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيى بن معين ، فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل ، وجلس بين يدي وقال : أمل عليّ هذا ، ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يدي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، اجلس مكانك ، فقال : لا تشتغل بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

قال إسحٰق الشهيد : كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة المسجد ، فيقف بين يديه عليّ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وغيرهم يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم اجلس ، ولا يجلسون هيبة وإعظامًا .

قال خلف : جاءني أحمد بن حنبل ، يسمع حديث أبي عوانة ، فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه[1] .

وكان جزاؤه من جنس عمله ، تأدب مع شيوخه ، فتأدب معه ، وهابه تلامذته ..

يقول أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ، ومحمد بن

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٨٢ ، ٨٣ .

الحسن ، ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن به مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ، ما هبت أحمد بن حنبل[1] .

وقال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وانظر إلى أبي بكر المروزي تلميذه ، وكان خصيصا بخدمة أحمد ، وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، خرج المروزي يومًا إلى الغزو ، فشيعه الناس إلى سامرا ، فجعل يردهم فلا يرجعون ، قال : فحزروا ، فإذا هم بسامرا سوى من رجع نحوًا من خمسين ألف إنسان ، فقيل له : يا أبا بكر احمد الله ، فهذا علم قد نشر عليك ، قال : فبكى ثم قال : ليس هذا العلم ، وإنما هذا علم أحمد بن حنبل .

قال إبراهيم الحربي لعبد الله بن الإمام أحمد : والله لو رأى ابن عيينة أباك لقام إليه .

وقال الحربي : يقول الناس لأحمد بن حنبل بالتوهم ، والله ، ما أجد لأحد من التابعين عليه مزية ، ولا أعرف أحدًا يقدر قدره ، ولا يُعرف لأحد من الإسلام محله ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاء ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاة في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس ، ولقد كان يقدم أئمة الإسلام ، والعلماء من كل بلد وإمام كل مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجًا من المسجد ، فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلمًا .

وقال عنه تلميذه عبد الوهاب الوراق : أبو عبد الله إمامنا ، وهو من الراسخين في العلم ، إذا وقفت غدا بين يدي الله عز وجل ، فسألني : بمن اقتديت ؟ أقول : بأحمد ، وأي شيء ذهب على أبي عبد الله من أمر الإسلام ، وقد بلي عشرين سنة في هذا الأمر .

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يرحم الله ابن حنبل ، صان العلم فصانه ، وحفظ العلم فحفظه ، حتى قال فيه يحيى ابن معين : قل يا معلم الخير .

○ بر الوالدين ○

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

يربط السياق القرآني بر الوالدين بعبادة الله ؛ إعلانا لقيمة هذا البر عند الله ، بهذه العبارات النديَّة ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء إلى الأبوة ، إلى الحياة المولية ، إلى الجيل الذاهب ، الذي يمتص الأولاد منه كل رحيق وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هم شيوخة فانية ، إن أمهلهما الأجل ، وهما مع ذلك سعيدان .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ تعبير يشف ويلطف ، ويبلغ شِغاف القلب ، وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترق وتلطف ، حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرًا ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانًا بالسلام والاستسلام .

الويل كل الويل لعاقٍّ والديه ، والخزي كل الخزي لمن ماتا غِضابًا عليه ، أفٍ لك هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه ، أتبع الآن تقصيرك في حقهما أنينًا وزفيرا .﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ .

كم آثراك بالشهوات على النفس ، ولو غبت ساعة صارا في حبس ، حياتهما عندك بقايا شمس، لقد راعياك طويلًا فارعهما قصيرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾.

كم ليلة سهرا معك إلى الفجرِ ، يداريانك مداراة العاشق في الهجرِ ، فإن

مرضت أجريا دمعًا لم يجرِ ، تالله ، لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾ .

يعالجان أنجاسك ويحبان بقاءك ، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك ، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك ، كم جرَّعاك حلوا وجرعتهما مريرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾ .

تحب أولادك طبعًا ، فأحبب والديك شرعًا ، وتذكر أصلًا أنبت لك فرعًا ، وتذكر طيب المرعى أولًا وأخيرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾(١) .

وانظر إلى بر إبراهيم عليه السلام بأبيه ، وقد كان كافرا ، ولطفه في خطابه ، وحرصه على هدايته ..

قال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقا نبيًّا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا سويًّا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيًّا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًّا** ﴾ [مريم : ٤١ - ٤٦] .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم ، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه : ﴿ **قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا** ﴾ [مريم : ٤٧] .

فرزقه الله بإسماعيل الذي تأدب معه .. ﴿ **قال يا أبت افعل ما تؤمر** ﴾ [الصافات : ١٠٢] يا أبت ، يا أبت ، في مودة وقربى ، وشبح السكين لا يزعجه.،

(١) التبصرة لابن الجوزي (١ / ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا يفزعه، ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه ومودته، والجزاء من جنس العمل.

قال رسول الله ﷺ : « بـرُّوا آباءكم تبركم أبناؤكـم ، وعفـوا تعِف نساؤكم »[١] .

قال المناوي : « برُّوا آباءكم » أي وأمهاتكم وكأنه اكتفى به عنه من قبيل : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] ، « تبركم أبناؤكم » وكما تدين تدان[٢] .

بِرُّ سيد التابعين ، أويس القرني ..

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجل يقال له : أويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرّه ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم »[٣] .

كان عمر – رضي الله عنه – إذا أتى أمداد اليمن سألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس بن عامر ، قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : كان بك برص فبرأت منه ، إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بار بها ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت

---

(١) حسن ؛ رواه الطبراني عن ابن عمر ، والحاكم في تاريخه ، قال في فيض القدير (٣/٢٠٠) : هذا الحديث روي عن خمسة من الصحابة ابن عمر ، وأنس ، وأبي هريرة ، وجابر ، وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد ، غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه ، وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا . وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .

(٣) رواه مسلم عن عمر .

أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي .

منع أويس من القدوم على النبي ﷺ بِرُّهُ بأمه ، فلما برّ أمه برّ اللهُ قسمه .

والجزاء من جنس العمل .

بل ، وأبرّ الله شفاعته ، قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنَّة بشفاعة رجل ليس بنبي ، مثل الحيين ربيعة ومضر ، إنما أقول ما أُقوَّل[(١)] »[(٢)] .

وقال أيضًا : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي ، أكثر من بني تميم »[(٣)] .

قال المناوي : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل » قيل : إنه أويس القرني[(٤)] .

وانظر إلى حارثة بن النعمان ..

عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ : « دخلت الجنة ، فسمعت قراءة فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » . فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر كذلكم البر » .

وزاد عبد الرزاق في رواية : وكان أبر الناس بأمه[(٥)] .

---

(١) أُقوَّل : أي لُقنته ، أو علمته ، أو ألقي على لساني من الإلهام ، أو هو وحي حقيقةً .

(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه السيوطي ، وقال المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني بأسانيد ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة ، وهو ثقة .

(٣) رواه أحمد وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وقال : صحيح ، رواه بشر بن الفضل عن خالد .

(٤) فيض القدير (٥/ ٣٥٢) .

(٥) رواه أحمد والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة (١ / ٦١٨) إسناده صحيح .

○ إفشاء السلام ○

قال رسول الله ﷺ : « أفشوا السلام تسلموا »(١) .

قال المناوي : « أفشوا السلام » بينكم ، « تسلموا » من التنافر والتقاطع ، وتدوم لكم المودة ، وتجمع القلوب ، وتزول الضغائن والحروب ، فأخبر المصطفى ﷺ أن السلام يبعث على التحابب ، وينفي التقاطع .

قال الماوردي : وقد جاء في كتاب الله ما يفيده ، قال الله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : ٣٤] فحكي عن مجاهد أن معناه ادفع بالسلام ، إساءة المسيء ، قال بعضهم : وإفشاء السلام ابتداء ، يستلزم إفشاءه جوابا .

قال ابن دقيق العيد : استدل بالأمر بالإفشاء من قال بوجوب الابتداء بالسلام ، وفيه نظر ، إذ لا سبيل إلى القول بأنه فرض عين على التعميم من الجانبين ، وهو أن يجب على كل أحد أن يسلم على كل من لقيه ، لما فيه من الحرج والمشقة ، فإذا سقط من جانبي العمومين سقط من جانبي الخصوصين ، إذ لا قائل بأنه يجب على واحد دون الباقين ، وإذا سقط على هذه الصورة لم يسقط الاستحباب ؛ لأن العموم بالنسبة إلى كلا الفريقين ممكن(٢) .

قال ابن حجر : وهذا البحث ظاهر في حق من قال : إن ابتداء السلام فرض عين لا كفاية ، إذا قلنا : إنه واجب على واحد لا بعينه .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو نعيم ، وابن حبان ، والعقيلي عن البراء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٩٨ ، الإرواء ٧٦٩ ، الصحيحة ١٤٩٣ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٢٢ - ٢٤) .

وإفشاء السلام فيه مصلحة عظيمة ، من اجتماع قلوب المسلمين ، وتناصرهم وتعاضدهم ؛ ولهذا قال بعضهم : إنه أدفع للضغينة بغير مؤنة ، واكتساب أخوة بأهون عطية .

وإفشاؤه : نشره لكافة المسلمين ، من عرف ، ومن لم يعرف .

قال النووي : الإفشاء : الإظهار ، والمراد نشر السلام بين الناس ليحيوا سنته ، وأقله بأن يرفع صوته بحيث يسمع المُسلّم عليه ، فإن لم يسمعه لم يكن آتيا بالسنة ، ويستحب أن يرفع صوته بقدر ما يتحقق أنه سمعه .

قال ابن العربي : من فوائد إفشاء السلام حصول الألفة ، فتتآلف الكلمة ، وتعم المصلحة ، وتقع المعاونة على إقامة شرائع الدين ، وإخزاء الكافرين ، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها غير الحقود إلى الإقبال على قائلها .

قال القاضي : ويستثنى من ندب رفع الصوت بالسلام ، ما لو دخل مكانًا فيه نيام ، فالسنة ما ثبت في صحيح مسلم ، أن المصطفى ﷺ كان يجيء من الليل ، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ، ويسمع اليقظان .

دخل في عموم إفشائه للسلام ، من دخل مكانًا ليس فيه أحد ، لقوله تعالى : ﴿ **فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم** ﴾ [النور : ٦١] وفي الأدب بسند حسن عن ابن عمر : يستحب إذا لم يكن بالبيت أحد أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

قال بعضهم : والحكمة فيه أن ابتداء التلاقي ، وما ألحق به من مواطن مشروعية السلام ربما نشأ عنه خوف ، أو كبر من أحد الجانبين ، فشرع نفيهما بالبداءة بتحية السلام ، وإزالة للخوف ، وتحليا بالتواضع .

واستثنى بعضهم من طلب إفشاء السلام ، ما لو علم من إنسان أنه لا يرد عليه ، فلا يسلم عليه ؛ لئلا يوقعه في المعصية ، وتتبعه النووي بأن المأمورات الشرعية لا تترك لمثل ذلك ، ولو نظرنا لذلك لبطل إنكار كثير من المنكرات . ورده ابن دقيق العيد : بأن مفسدة توريط المسلم في المعصية أشد من مصلحة السلام ، سيما وامتثال الإفشاء يحصل مع غيره . اهـ .

وقال ﷺ : « أفشوا السلام كي تَعْلُوا »(١) .

« أفشوا السلام تسلموا » ، والجزاء من جنس العمل .

إذا أفشيتموه تحاببتم ، فاجتمعت كلمتكم ، فقهرتم عدوكم ، وعلوتم عليهم ، وكانت لكم الرفعة أيضًا عند الله .

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهمُ ودٌّ فيزرعه التسليمُ واللطفُ

فوائد :

قال رسول الله ﷺ : « إذا اصطحب رجلان مسلمان ، فحال بينهم شجر أو حجر أو مدر ، فليسلم أحدهما على الآخر ، وتبادلوا السلام »(٢) .

وقال ﷺ : « ما حسدتكم اليهود على شيء ، ما حسدتكم على السلام والتأمين »(٣) .

وقال ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى : فأفشوه بينكم »(٤) .

وقال ﷺ : « إن موجبات المغفرة بذل السلام ، وحسن الكلام »(٥) .

وفي الصحيح عنه ﷺ : « وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام »(٦) .

---

(١) رواه الطبراني عن أبي هريرة ، ورمز السيوطي لضعفه ، وليس كما زعم ، فقد قال الحافظ المنذري : إسناده جيد ، وقال الهيثمي وغيره : إسناده حسن . فيض القدير (٢ / ٢٣) .

(٢) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢ .

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٨٩.

(٤) صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٣٥ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن هانىء بن يزيد ، ورواه الخرائطي والقضاعي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٨ .

(٦) جزء من حديث الترمذي ؛ حديث اختصام الملأ الأعلى ، وهو صحيح .

وقال ﷺ : « حق المسلم على المسلم خمس : السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس »(١) .

وقال ﷺ : « السلام قبل السؤال ، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام ، فلا تجيبوه »(٢) .

وقال ﷺ : « يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم »(٣) .

وقال ﷺ : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القائم ، والقليل على الكثير »(٤) .

وقال ﷺ : « يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير »(٥).

وقال ﷺ : « لا تقل : عليك السلام ؛ فإن عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك »(٦). قال ابن مفلح في الآداب الشرعية : إسناده جيد .

وقال ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم»(٧).

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة . والتشميت أن يدعو له بالخير فيقول : يرحمك الله .

(٢) حسن : رواه ابن النجار عن ابن عمر ، ورواه ابن عدي وابن السني وأبو نعيم في الحلية ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٧٩ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة .

(٥) رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٦) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم في المستدرك عن جابر بن سليم ، ورواه أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٧٩ . جرت به عادة العرب في تحية الأموات ، يقدمون اسم الميت :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

(٧) رواه البخاري ومسلم وأحمد ومالك عن ابن عمر .

وقال ﷺ : « إذا لقيتم المشركين في الطريق ، فلا تبدءوهم بالسلام ، واضطروهم إلى أضيقها »(١) .

وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف»(٢).

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية :

ولو سلم على أصم جمع بين اللفظ والإشارة ، فإن لم يجمع لم يجب الجواب ، فإن سلم عليه أصم ، جمع بين اللفظ والإشارة في الرد والجواب ، فأما الأخرس فسلامه بالإشارة وكذلك جواب الأخرس ، ويؤخذ من المسألة قبلها أن من سلم على أخرس أو ردَّ سلامه جمع بين اللفظ والإشارة ، وهو متوجه ، والواجب منه رفع الصوت به قدر الإبلاغ ، وقد ورد ما يدل على خلاف هذا(٣).

وقال ﷺ : « من بدأ بالسلام ، فهو أولى بالله ورسوله »(٤) .

وقال ﷺ : « من أشراط الساعة ، أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وألَّا يسلم الرجل إلا على من يعرف »(٥) .

وروى أحمد في مسنده بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم»(٦).

---

(١) المعنى ألا تتركوا لهم صدر الطريق إكرامًا واحترامًا .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن ابن عمرو ، ورواه الطبراني في الأوسط ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٣١٠ .

(٣) الآداب الشرعية (١ / ٣٧٨) .

(٤) أولى برحمة الله ، وشفاعة رسوله ﷺ ، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١ / ٣٧٧):حديث جيد .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٧٧٢ .

(٦) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧ ، والقيامة الصغرى للأشقر ص١٩٢ .

ومراده بتسليم الخاصة : ألَّا يسلم المسلم إلا على من يعرفه .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » . وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل ، لا يسلم عليه إلا للمعرفة »(١).

قال ابن مفلح : ويجوز تعريف السلام بالالف واللام ، وتنكيره على الأحياء والأموات ، وقيل تنكيره أفضل ، وقال ابن البنا : سلام التحية مُنَكّر وسلام الوداع معرّف ، وقال ابن عقيل : سلام الأحياء مُنَكّر ، وسلام الأموات مُعَرّف ، أما سلام الرد فمعرّف(٢) .

وقال : قال ابن هبيرة : إن سلم على رجل فقد أمنه ، فالفارس أقوى من الراجل ، فأمر عليه السلام ، بسلام الأقوى على الأضعف ، وسلام القليل على الكثير ، ولو سلم الغائب عن العين من وراء جدار أوستر ، السلام عليك يا فلان ، أو سلم الغائب عن البلد برسالته أو كتابه وجبت الإجابة عند البلاغ عندنا ، وعند الشافعية ؛ لأن تحية الغائب كذلك ، ويستحب أن يسلم على الرسول ، قيل لأحمد : إن فلانًا يقرئك السلام ، قال : عليك وعليه السلام ، وقال في موضع آخر : سلم الله عليك وعليه . وقال رجل لأبي ذر : فلان يقرئك السلام ، فقال : هدية حسنة ومحمل خفيف .

وفي الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام » ، فقالت : وعليه السلام ورحمة الله . زاد البخاري في رواية : وبركاته . وزاد أحمد : جزاه الله خيرًا من صاحب ودخيل ، فنعم الصاحب ونعم الدخيل .

قال في شرح مسلم : وفيه بعث الأجنبي السلام إلى الأجنبية الصالحة ، إذا لم يخف ترتب مفسدة ، وفيه دليل أنه لا يجب الرد على مبلغ السلام ، وهو

---

(١) صحيح : رواه أحمد عن ابن مسعود ، والطبراني في الكبير عن الأسود بن يزيد . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨ .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٣٧٥) .

الرسول ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ولكن قولوا : التحيات لله »[(١)] .

قال ابن مفلح : إن دخل على جماعة فيهم علماء سلم على الكل ، ثم سلم على العلماء سلامًا ثانيًا ، ذكره ابن تميم ، وابن حمدان ، وظاهر كلام بعضهم خلافه .

○ البلاء والمرض ○

قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »[(٢)].

قال المناوي : من بلاؤه أعظم ، فجزاؤه أعظم ، « وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم » أي اختبرهم بالمحن والرزايا ، وهو أعلم بحالها ، قال لقمان لابنه : يا بني ، الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلاء ، فمن يرضى قضاءً ابتلي به ، فله الرضا من الله ، وجزيل الثواب ، ومن سخط وكره قضاء ربه ، ولم يرضه فله السخط منه تعالى ، وأليم العذاب.و ﴿**من يعمل سوءًا يُجز به**﴾ [النساء: ١٢٣].

وقوله ﷺ : « من رضي فله الرضى » شرط وجزاء ، فهم منه أن رضى الله مسبوق برضى العبد ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد رضى الله عنه ، كما قال : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ [البينة : ٨] ومحال أن يحصل رضى الله ، ولا يحصل رضى العبد في الآخرة ، فعن الله الرضى أزلًا وأبدًا .

وفيه جنوح إلى اختيار الصحة على البلاء ، والعافية على السقم ، ولا ينافيه الأمر بسؤال العافية ، وأنها أفضل الدعاء ، وأنه إنما كرهه لأجل الجرائم واقتراف العظائم ، كيلا يلقوا ربهم غير مطهرين من دنس الذنوب ، فالأصلح لمن كثرت

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارقطني .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٠٦ ، تخريج المشكاة ١٥٦٦ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٦ .

خطاياه السكوت والرضى ليخف ، والتطهير بقدر التمحيص ، والأجر بقدر الصبر[1] .

« من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .. والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، لقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها[2] فيلبسها ، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء » .

وقال ﷺ : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صُلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

وقال ﷺ : « إن الصالحين يشدد عليهم » .

وقال ﷺ : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » .

ويقول ﷺ : «ليودنَّ أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء » .

يقول ابن القيم : رضى العبد عن ربه - سبحانه وتعالى - في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه ، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه به عنه بالقليل من العمل .

وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ، وجده أسرع شيء ى رضاه إذا ترضَّاه وتملقه[3] .

ويقول أيضًا : إن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه .

---

(١) فيض القدير (٢ / ٤٥٩) .

(٢) أي يقطعها .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٦) .

فإن الجزاء من جنس العمل[(١)] .

○ من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا وقعودًا ○

خرج معاوية على ابن الزبير ، وابن عامر ، فقام ابن عامر ، وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا ، فليتبوأ مقعده من النار »[(٢)] .

يتمثل : أي ينتصب ، والمثول هو الانتصاب .

قال المناوي : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا » يعني يقومون قيامًا بأن يلزمهم بالقيام صفوفًا ، على طريق الكبر والتجوه ، أو بأن يقام على رأسه وهو جالس .

« فليتبوأ مقعده من النار » ، قال الزمخشري : أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من أحب ذلك وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك .

وذلك لأن ذلك إنما ينشأ عن تعظيم المرء نفسه ، واعتقاد الكمال ، وذلك عجب وتكبر ، وجهل وغرور ، ولا يناقض خبر : « قوموا إلى سيدكم » لأن سعدًا لم يحب ذلك ، والوعيد إنما هو لمن أحبه .

قال النووي : ومعنى الحديث زجر المكلف أن يحب قيام الناس له ، ولا تعرض فيه للقيام بنهي ولا بغيره ، والمنهي عنه محبة القيام له ، فلو لم يخطر بباله فقاموا له أو لم يقوموا فلا لوم عليه ، وإن أحبّه أثم ، قاموا أو لا فلا يصح الاحتجاج به لترك القيام ، ولا يناقضه القيام لأهل الكمال ونحوهم[(٣)] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢١٠) .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن معاوية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٣٣ ، والصحيحة ٣٥٦ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٣١ - ٣٢) .

قال ابن مفلح : حمله الخطابي على ما إذا أمرهم بذلك وألزمهم على طريق الكبر .

قال إسحق بن إبراهيم : قلت لأبي عبد الله : ما معنى الحديث « لا يقوم أحد لأحد » ؟ قال : إذا كان على وجه الدنيا مثل ما روى معاوية فلا يعجبني[(١)] .

قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر : سيدنا الله عز وجل قال : « أنزلوه » فأنزلوه[(٢)] .

وعن أبي سعيد الخدري : أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه النبي ﷺ فجاء ، فقال : « قوموا إلى سيدكم » أو قال : « خيركم » فقعد عند النبي ﷺ.. الحديث[(٣)] .

قال الألباني :

١ – اشتهر رواية هذا الحديث بلفظ « لسيدكم » والرواية في الحديثين كما رأيت « إلى سيدكم » ولا أعلم للفظ الأول أصلًا ، وقد نتج منه خطأً فقهي ، وهو الاستدلال به على استحباب القيام للقادم كما فعل ابن بطال وغيره .

قال الحافظ محمد ناصر أبو الفضل في : التنبيه على الألفاظ التي وقع في نقلها وضبطها تصحيف وخطأً في تفسيرها ومعانيها ، تحريف في كتاب الغربيين عن أبي عبيد الهروي .

ومن ذلك ما ذكره في هذا الباب من ذكر السيد ، وقال كقوله لسعد حين قال : « قوموا لسيدكم » أراد أفضلكم رجلا ، قلت : والمعروف أنه قال : « قوموا إلى سيدكم » قاله ﷺ لجماعة من الأنصار لما جاء سعد بن معاذ محمولا على حمار وهو جريح... أي أنزلوه واحملوه لا قوموا له من القيام له ، فإنه أراد

---

(١) الأدب للخلال . (٢) إسناده حسن .

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد وأبو يعلى في مسنده .

بالسيد : الرئيس والمتقدم عليهم ، وإن كان غيره أفضل منه .

٢ - اشتهر الاستدلال بهذا الحديث على مشروعية القيام للداخل ، وأنت إذا تأملت في سياق القصة يتبين لك أنه استدلال ساقط من وجوه كثيرة ، أقواها قوله ﷺ : « فأنزلوه » . فهو نص قاطع على أن الأمر بالقيام إلى سعد إنما كان لإنزاله من أجل كونه مريضًا ، ولذلك قال الحافظ : وهذه الزيادة تخدش في الاستدلال بقصة سعد على مشروعية القيام المتنازع فيه ، وقد احتج به النووي في كتاب القيام[1] .

قال ابن مفلح : تحت عنوان « فصل في القيام للقادم وأدب السنة ومراعاة العادة فيه » : ويكره القيام لغير سلطان وعالم وولد ، ذكره السامري ، وقيل : سلطان عادل ، وزاد في الرعاية الكبرى : ولغير ذي دين وورع ، وكريم قوم وسن في الإسلام ، وقال ابن تميم : لا يستحب القيام إلا للإمام العادل والوالدين ، وأهل العلم والدين والورع والنسب ، وهو معنى كلامه في المجرد والفصول ، وكذا ذكر الشيخ عبد القادر ، وقاسه على المهاداة لهم ، وقال : يكره لأهل المعاصي والفجور ، وهذا كله معنى كلام أبي بكر .

والذي يقام إليه ينبغي له ألا يستكبر نفسه إليه ولا يطلبه ، والنهي قد وقع على السرور بذلك الحال ، فإذا لم يُسَرَّ بالقيام إليه ، وقاموا له ، فغير ممنوع منه ، ولمن قام إليه ، لإعظامه الرجل الكبير على ما رسمناه . وكذا قال بعض أصحابنا وغيرهم في النهي عن ذلك : إنما هو تحذير من الفتنة والعجب والخيلاء ، قالوا : مع أن ابن قتيبة قد قال : إنما معناه ما يفعله الأعاجم ، والأمراء في زماننا هذا ، أنه يجلس والناس قيام بين يديه تكبرًا وعجبًا .

قال صاحب النظم : وكذا قال ابن مسعود وغيره فيمن يمشي الناس خلفه إكرامًا : إنها ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

قال الشيخ تقي الدين : فأبو بكر والقاضي ومن تبعهما ، فرقوا بين القيام

---

(١) التعليق السلسلة الصحيحة (١ / ١٠٥ - ١٠٦) .

لأهل الدين وغيرهم ، فاستحبوه لطائفة ، وكرهوه لأخرى ، والتفريق في مثل هذا بالصفات فيه نظر .

قال : وأما أحمد فمنع منه مطلقا لغير الوالدين ، فإن النبي ﷺ سيد الأمة ، ولم يكونوا يقومون له . فاستحباب ذلك للإمام العادل مطلقًا خطأ ، وقصة ابن أبي ذئب مع المنصور تقتضي ذلك ، وما أراد أبو عبد الله - والله أعلم - إلا لغير القادم من سفر ، فإنه قد نص على أن القادم من السفر إذا أتاه إخوانه ، فقام إليهم وعانقهم فلا بأس ، وحديث سعد يخرج على هذا ، وسائر الأحاديث ، فإن القادم يتلقى لكن هذا قام فعانقهم ، والمعانقة لا تكون إلا بالقيام ، وأما الحاضر في المصر الذي طالت غيبته ، والذي ليس من عادته المجيء إليه فمحل نظر ، فأما الحاضر الذي يتكرر مجيئه في الأيام كإمام المسجد ، أو السلطان في مجلسه ، أو العالم في مقعده ، فاستحباب القيام له خطأ ، بل المنصوص عليه عن أبي عبد الله ، هو الصواب ، هذا كلامه .

وقال أيضًا : لا يجوز أن يكون قاعدًا وهم قيام ، قال النبي ﷺ « من سرَّه أن يتمثل الرجال له قيامًا فليتبوأ مقعده من النار ». وفي الصحيح : أنهم لما قاموا خلفه في الصلاة قال : « لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضهم بعضًا » اهـ .

وأما القيام لمصلحة وفائدة ، كقيام معقل بن يسار ، يرفع غصنا من شجرة على رأس رسول الله ﷺ وقت البيعة . رواه مسلم ، وقيام أبي بكر يظله من الشمس - فمستحب .

وذكر ابن هبيرة : يجوز ، ولا يكره ، وقال عن الأنبار والأعاجم : القيام على رؤوسهم شديد الكراهية ، قال : فأما وقوف من يذهب في شغل ويعود ، كقيام الحاجب والمستخدمين ، فإن الفرق بين من يتقدم في الأشغال ويتردد فيها ، وبين من ليس كذلك معنى ظاهر .

ونصوص الإمام أحمد بعضها يؤخذ منه موافقة الأصحاب ، وبعضها يدل

على الكراهة إلا للوالدين ، وبعضها يكره إلا لقادم من سفر ، وقال إسحق بن إبراهيم : خرج أبو عبد الله على قوم في المسجد فقاموا له فقال : لا تقوموا لأحد فإنه مكروه ، فهذه ثلاث روايات .

قال ابن الجوزي : وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لا يقومون له؛ لما يعرفون من كراهته لذلك ، وهذا كان شعار السلف ، ثم صار ترك القيام كالإهوان بالشخص ، فينبغي أن يقام لمن يصلح .

وكذا قال الشيخ تقي الدين في الفتاوى المصرية : ينبغي ترك القيام في اللقاء المتكرر المعتاد ، لكن إذا اعتاد الناس القيام ، وقدم من لا يرى كرامته إلا به ، فلا بأس به ، فالقيام دفعا للعداوة والفساد ، خير من تركه المفضي إلى الفساد ، وينبغي مع هذا أن يسعى في الإصلاح على متابعة السنة .

وروى ابن القاسم في المدونة : قيل لمالك : فالرجل يقوم للرجل له الفضل والفقه ؟ قال :أكره ذلك : وصح عنه عليه السلام قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا » . ولفظ الترمذي « شرف كبيرنا » .

وعن عبادة مرفوعًا : « ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » رواه أحمد ، وهو حديث حسن .

قال بعضهم : وهذا كاف عند الجمهور .

ولأبي داود بإسناد جيد ، من حديث أبي موسى : « إن من إجلال الله ، إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، ولا الجافي منه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » .

ولا يلزم من هذا القيام له ، وإنما فيه إكرامه وتوقيره ، فقال ابن حزم : اتفقوا على توقير أهل القرآن والإسلام، والنبي ﷺ وكذلك الخليفة الفاضل والعالم.

وفي الصحيحين : لما تاب الله على كعب بن مالك - رضي الله عنه - وأن النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ، فذهب الناس يبشروننا ، وركض رجل إلى فرس ، وسعى ساعٍ قبلي ، فأوفى على جبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما

جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي ، فكسوتهما إياه ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما إلى رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقاني الناس فوجًا يهنوني بالتوبة ، ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم » . إسناده جيد ، رواه ابن حبان في صحيحه .

وقال الحسن بن محمد بن الحارث إنه سأل أبا عبد الله : عن القيام في السلام ، فكأنه كرهه إذا لم يقدم من سفر أن يقوم كذا إلى الرجل فيعانقه ، قلت لأبي عبد الله : إذا قام يعني الرجل حتى يجلسه لكبره ، فأقول له : إما أن تقعد وإما أن أقوم ؟ فقال : إذا كان لكبره أو لكذا .

وقال حنبل : قلت لعمي : ترى للرجل أن يقوم للرجل إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد إلا الولد لوالده أو لأمه ، أما لغير الوالدين ، فلا .

قال مثنى : إنه سأل أبا عبد الله : ما تقول في المعانقة ؟ وهل يقوم أحد لأحد في الإسلام إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد ، وأما إذا قدم من سفر فلا أعلم به بأسًا إذا كان على التدين ، يحبه في الله ، أرجو لحديث جعفر أن النبي ﷺ اعتنقه ، وقبل جلدة بين عينيه .

ونقل غيره أن أبا إبراهيم الزهري بن أحمد بن سعد جاء إلى أحمد يسلم عليه ، فلما رآه وثب إليه ، وقام إليه قائمًا ، وأكرمه فلما أن مشى قال له ابنه عبد الله : يا أبت ، أبو إبراهيم شاب وتعمل هذا ، وتقوم إليه ؟ فقال يا بني : لا تعارضني في مثل هذا ، ألا أقوم إلى ابن عبد الرحمن بن عوف ؟ ذكره أبو الأخضر فيمن روى عن أحمد .

وقال أبو داود : باب ما جاء في القيام : عن عائشة – رضي الله عنها –

قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا برسول الله ﷺ من فاطمة كانت إذا دخلت عليه ، قام إليها ، فأخذ بيدها ، وقبّلها ، وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، فأخذت بيده ، فقبلته ، وأجلسته ، في مجلسها[(١)] .

قال ابن عبد البر : جائز للرجل أن يكرم القاصد إليه ، إذا كان كريم قوم أو عالمهم ، أو من يستحق البر منهم بالقيام إليه ، وغير جائز للرئيس وغيره أن يكلف الناس بالقيام إليه ، أو يرضى ذلك منهم .

وقال البيهقي : باب القيام لأهل العلم على وجه الإكرام : ثم ذكر قيام طلحة لكعب ، وقوله عليه السلام لما جاءه سعد: « قوموا إلى سيدكم » ، وقال مسلم : لا أعلم في قيام الرجل للرجل حديثًا أصحَّ من هذا .

وقال أبو زكريا النواوي بعد ذكره محتجاً به ؛ وقد احتج العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم على القيام بهذا الحديث ، وممن احتج به ، أبو داود في سننه ، فترجم له : باب ما جاء في القيام . واحتج به بشر بن الحارث الحافي الزاهد ، ومسلم ، وأبو زرعة ، وأبو بكر بن أبي عاصم ، والخطابي ، والبيهقي ، والخطيب ، وأبو محمد البغوي ، والحافظ أبو موسى المديني ، وآخرون لا يحصون .

وقال أبو هاشم الرفاعي : قام وكيع لسفيان الثوري ، فأنكر عليه قيامه له ، فقال له وكيع : أنت حدثتني عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله ، إجلال ذي الشيبة المسلم » فأخذ سفيان بيده فأجلسه إلى جانبه ، وقال الخليلي الحافظ : أخبرني عثمان بن إسماعيل ، حدثنا أبو نعيم بن عدي قال : كان أبو زرعة لا يقوم لأحد ، ولا يجلس أحدًا في مكانه ، إلا ابن دارة ، فإني رأيته بفعل ذلك .

قال ابن حجر :

محصل المنقول عن مالك إنكار القيام ما دام الذي يقام لأجله لم يجلس ،

---

(١) إسناده صحيح ، رواه النسائي ، والترمذي ، وقال : صحيح غريب من هذا الوجه .

ولو كان في شغل نفسه ، فإنه سئل عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع ثيابه ، وتقف حتى يجلس ، فقال : أما التلقي فلا بأس به ، وأما القيام حتى يجلس فلا ، فإن هذا فعل الجبابرة ، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز(١) .

وقال ابن القيم في حاشية السنن : القيام ينقسم إلى ثلاث مراتب : قيام على رأس الرجل ، وهو فعل الجبابرة ، وقيام إليه عند قدومه ولا بأس به ، وقيام إليه عند رؤيته وهو المتنازع فيه .

ونقل الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه :

الأول : محظور ، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرًا وتعاظما على القائمين إليه .

والثاني : مكروه ، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين ، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك ما يحذر ، ولما فيه من التشبه بالجبابرة .

والثالث : جائز ، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك ، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة .

والرابع : مندوب ، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ؛ ليسلم عليه ، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها ، أو مصيبة فيعزيه بسببها .

وذكر ابن الحاج : من المفاسد التي تترتب على استعمال القيام ، أن الشخص صار لا يتمكن فيه من التفصيل بين من يستحب إكرامه ، وبره ، كأهل الدين والخير والعلم ، أو يجوز كالمستورين وبين من لا يجوز كالظالم المعلن بالظلم ، ويكره كمن لا يتصف بالعدالة وله جاه ، فلو اعتاد القيام ما احتاج أحد أن يقوم لمن يحرم إكرامه أو يكره ، بل جر ذلك إلى ارتكاب النهي لما صار يترتب على الترك من الشر .

قال ابن حجر :

وفي الجملة متى صار ترك القيام يشعر بالاستهانة ، أو يترتب عليه مفسدة امتنع ، وإلى ذلك أشار ابن عبد السلام . ونقل ابن كثير في تفسيره عن بعض

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٣) .

المحققين التفصيل فيه ، فقال : المحذور أن يتخذ ديدنا ، كعادة الأعاجم ، كما دل عليه حديث أنس ، وأما إن كان لقادم من سفر ، أو لحاكم في محل ولايته ، فلا بأس به ، قلت : ويلتحق بذلك ما تقدم في أجوبة ابن الحاج كالتهنئة لمن حدثت له نعمة ، أو لإعانة العاجز ، أو لتوسيع المجلس أو غير ذلك . والله أعلم .

وقد قال الغزالي : القيام على سبيل الإعظام مكروه ، وعلى سبيل الإكرام لا يكره ، وهذا تفصيل حسن[(١)]

○ جزاء من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ○

قال رسول الله ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، صُبَّ في أذنيه الآنُك، ومن أري عينيه في المنام ما لم ير كلّف أن يعقد شَعيرة»[(٢)].

قال المناوي : الآنُك : بفتح الهمزة الممدودة وضم النون : الرصاص ، أو الخالص منه ، أو الأسود أو الأبيض أو القصدير ، قال الزمخشري : وهي أعجمية . وقال الجوهري : أفعل بضم العين من أبنية الجمع ، ولم يجيء عليه الواحد إلا آنك .

من استمع إلى حديث قوم وهم لا يريدون استماعه ، أو يكرهون استماعه .

والجملة إخبار أو دعاء عليه . وفيه وعيد شديد ، موضعه فيمن يستمع لمفسدة كنميمة ، أما مستمع حديث قوم يقصد منعهم من الفساد أو ليحترز من شرهم فلا يدخل تحته ، بل قد يندب ، بل قد يجب بحسب المواطن ، وللوسائل حكم المقاصد .

والجزاء من جنس العمل ... فهذا جزاء أذن امتدت وأصغت للسماع .

وقال رسول الله - ﷺ -: « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٦) .

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٩٠٤ ، تخريج الخلال ٤٢٧ .

شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صُبّ في أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب ، وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ »(١) .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم ترَ » .

وعند أحمد عن قتادة « من تَحلَّم كاذبا دفع إليه شعيرة ، وعذب حتى يعقد بين طرفيها ، وليس بعاقد » .

قال ابن حجر : هذا الحديث قد اشتمل على ثلاثة أحكام : أولها : الكذب على المنام ، ثانيها : الاستماع لحديث من لا يريد استماعه ، ثالثها : التصوير .

يقول : وأما الكذب على المنام فقال الطبري : إنما اشتد فيه الوعيد مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه ، إذ قد تكون شهادة في قتل أو حد أو مال ؛ لأن الكذب في المنام كذب على الله ، أنه أراه ما لم يره ، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ..** ﴾ الآية [هود : ١٨] وإنما كان الكذب في المنام كذبا على الله ؛ لحديث « الرؤيا جزء من النبوة » ، وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى . اهـ ملخصًا .

وأما الاستماع : قيد حديث الباب لمن يكون كارها لاستماعه ، فأخرجه من يكون راضيا ، وأما من جهل ذلك فيمتنع حسما للمادة .

وأما الوعيد على ذلك بصب الآنك في أذنه فمن الجزاء من جنس العمل ، والآنك بالمد وضم النون : الرصاص المذاب ، وقيل : وهو خالص الرصاص ، وقال الداودي : هو القصدير .

وقال ابن أبي جمرة : إنما سماه حلما ، ولم يسمه رؤيا ؛ لأنه ادعى أنه رأى ولم ير شيئًا ، فكان كاذبًا ، والكذب إنما هو من الشيطان ، وقد قال : « إن

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس .

الحلم من الشيطان » وما كان من الشيطان فهو غير حق ، فصدق بعض الحديث بعضا ، قال : ومعنى العقد بين الشعيرتين أن يفتل إحداهما بالأخرى ، وهو مما لا يمكن عادة ، قال : ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه والمصور ، أن الرؤيا خلق الله ، وهي صورة معنوية فأدخل بكذبه صورة لم تقع ، كما أدخل المصور صورة في الوجود ليست بحقيقة؛ لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح ، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا ، وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين ، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا ، وهو أن يتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح ، ووقع وعيد كل منهما بأنه يعذب حتى يفعل ما كُلّف به ، وهو ليس بفاعل ، فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام .

قال : والحكمة في هذا الوعيد الشديد ، أن الأول كذب على النبوة ، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته .

أما مستمع حديث من يكره استماعه : يدخل فيه من دخل منزله وأغلق بابه ، وتحدث مع غيره فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه ، فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد ، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب ، فقد ورد الوعيد فيه ، ولأنهم لو فقئوا عينه لكانت هدرًا .

قال : ويستثنى من عموم من يكره استماع حديثه ، من تحدث مع غيره جهرًا ، وهناك من يكره أن يسمع ، فلا يدخل المستمع في هذا الوعيد ؛ لأن قرينة الحال وهو الجهر ، تقتضي عدم الكراهة . فيسوغ الاستماع .

ومن اللطائف ما قال غيره : إن اختصاص الشعير بذلك لما في المنام من الشعور بما دل عليه فحصلت المناسبة بينهما من جهة الاشتقاق[1] اهـ .

○ جزاء من يلعن الريح ○

قال رسول الله ﷺ : « لا تلعن الريح فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئًا

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨) .

ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه »[1] .

وقال ﷺ : « إذا خرجت اللعنة مِنْ فِي صاحبها ، نظرت ، فإن وجدت مسلكا في الذي وجهت إليه ، وإلا عادت إلى الذي خرجت منه » ، وقال ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئًا ، صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا ، فإذا لم تجد مساغًا[2] رجعت إلى الذي لُعِن ، فإن كان لذلك أهلا ، وإلا رجعت إلى قائلها »[3].

والجزاء من جنس العمل ..

قال المناوي : إن العبد إذا لعن آدميًا أو غيره ، بأن دعا عليه بالطرد والبعد عن رحمة الله تعالى ، صعدت اللعنة إلى السماء لتدخلها ، فتغلق أبواب السماء دونها ؛ لأنها لا تفتح إلا لعمل صالح ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] ثم تنزل إلى الأرض ، لتصل إلى سجين فتغلق أبوابها دونها أي تمنع من النزول ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا تتحير فلا تدري أين تذهب ، فإذا لم تجد مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه لمحل تستقر فيه ، رجعت إلى الذي لُعِن فإن كان للعنة أهلا رجعت إليه فصار مطرودًا ، فإن لم يكن لها أهلًا رجعت بإذن ربها[4] إلى قائلها ؛ لأن اللعنة طرد عن رحمة الله ، فمن طرد ما هو أهل لرحمته

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣٢٤. ورواه ابن حبان، والطبراني، والبيهقي، وصححه الألباني في الصحيحة ٥٢٧ .

(٢) مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه .

(٣) قال ابن حجر : سنده جيد ، وله شاهد عند أحمد من حديث ابن مسعود بسند حسن ، وآخر عند أبي داود والترمذي عن ابن عباس ، ورواته ثقات ، لكنه أعلَّ بالإرسال .

(٤) والدليل ما رواه أحمد بسند جيد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ =

عن رحمته ، فهو بالطرد والإبعاد عنها أحق وأجدر ، ومحصول الحديث التحذير من لعن من لا يستوجب اللعنة ، والوعيد عليه بأن يرجع اللعنة إليه : ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ [النور : ٤٤] .

وقال ﷺ : « أوصيك ألا تكون لعانًا » .

قال المناوي : لا تلعن معصومًا ، فيحرم لعن المعصوم المعين ، فإن اللعنة تعود على اللاعن وصيغة المبالغة هنا غير مرادة .

وقال ﷺ : « إني لم أبعث لعانًا » .

وقال : « إني لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » .

وقال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذيّ » .

وقال ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ، ولا شهداء يوم القيامة » .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أنه لا يجوز لعن المعين ، ما دام في دار الدنيا ، ولكن تقول : لعنة الله على الظالمين ، وعلى الكافرين ، لعن الله المتبرجات ، هذا على العموم ، أمّا المعين فلا .

« لا تسبوا الريح » ، « لا تلعنوا الريح » .

قال المناوي : فإنها من روح الله ورحمته ، تأتي بالرحمة : بالغيث والراحة والنسيم ، وتأتي بالعذاب : بإتلاف النبات والشجر وهلاك الماشية وهدم البناء . فلا تسبوها ؛ لأنها مأمورة لا ذنب لها.

قال الشافعي – رحمه الله –: « لا ينبغي شتم الريح ، فإنها خلق مطيع لله ، وجند من جنوده يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونقمة إذا شاء .

قال مطرف : لو حبست الريح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض .

= يقول : « إن اللعنة إذا وجهت إلى من وجهت إليه ، فإن أصابت عليه سبيلًا ، أو وجدت فيه مسلكا وقفت عليه ، وإلا قالت : يا رب ، وجهت إلى فلان فلم أجد فيه مسلكا ، و لم أجد عليه سبيلًا فيقال : ارجعي من حيث جئت » يعني إلى قائلها .

والمؤمن لا يكون سبابًا ..

قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره »(١).

وقال تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم** ﴾[الأنعام : ١٠٨] .

○ جزاء من يتنخم في القبلة ○

قال رسول الله ﷺ : « تبعث النخامة في القبلة يوم القيامة ، وهي في وجه صاحبها »(٢) .

والجزاء من جنس العمل ..

وقال ﷺ : « من تفل تجاه القبلة ، جاء يوم القيامة تفلهُ بين عينيه ، ومن أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا »(٣) .

○ جزاء من وصل رحمه ومن قطعها ○

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ من خلقه ، قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ، قال : فهو لك » ، قال رسول الله ﷺ : « فاقرءوا إن شئتم : ﴿ **فهل**

---

(١) المخلص عن أبي هريرة وتمام والديلمي ، انظر الصحيحة ٧١٩٥ ، وصحيح الجامع ٧١٩٥ .

(٢) رواه البزار عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٠٧ ، تخريج الترغيب (١ / ١٢٢) ، رواه ابن خزيمة ، وابن حبان .

(٣) رواه أبو داود، وابن حبان، عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٣٦، تخريج الترغيب (١ / ١٢٤ ، ١٣٤) ، والصحيحة ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ »(١) [محمد : ٢٢] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إن الرحم شُجنةٌ من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته »(٢) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قال : « الرحم شُجنة فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الرحم شجنة آخذة بحجزة الرحمن ، تصل من وصلها ، وتقطع من قطعها »(٤) .

قول الرحم .. قال فيه ابن حجر : يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان القال ، قولان مشهوران ، والثاني أرجح . وعلى الثاني : فهل تتكلم كما هي ، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا ؟ قولان أيضا مشهوران ، والأول أرجح ؛ لصلاحية القدرة العامة لذلك ، ولما في الأولين من تخصيص عموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل ، ولما يلزم منه من حصر قدرة القادر التي لا يحصرها شيء .

حجزة الرحمن : حكى شيخنا في شرح الترمذي أن المراد بالحجزة هنا قائمة العرش ، وأيد ذلك بما أخرجه مسلم من حديث عائشة : « إن الرحم أخذت بقائمة من قوائم العرش » .

« هذا مقام العائذ » هذا مكان .

« الرحم شِجْنَة » بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون ، وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة ، وأصل الشجنة : عروق الشجر المشتبكة ، والشجن : واحد الشجون ، وهي طرق الأودية ، ومنه قولهم : الحديث ذو شجون ؛ أي يدخل بعضه في بعض .

---

(١) ، (٢) ، (٣) رواه البخاري .

(٤) رواه أحمد عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٦٢٥ ، والصحيحة ١٦٠٢ .

شجنة من الرحمن : أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث ابن عوف في السنن مرفوعًا : « أنا الرحمٰن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمي » ، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها ، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله .

وقال الإسماعيلي : إن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن ، فلها به علقة ، وليس معناه أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك .

وقال ابن حجر أيضًا في الفتح : الرحم يطلق على الأقارب ، وهم : من بينه وبين الآخر نسب ، سواء كان يرثه أم لا ، سواء كان ذا محرم أم لا ، وقيل هم المحارم فقط ، والأول هو المرجح ؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد العم ، وأولاد الخال من ذوي الأرحام وليس كذلك .

قال ابن حجر : قال القرطبي : إن الرحم التي توصل عامة وخاصة ، فالعامة : رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف ، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة . وأما الرحم الخاصة فتزيد: النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم ، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك الأقرب فالأقرب .

وقال ابن أبي جمرة : تكون صلة الرحم بالمال ، وبالعون على الحاجة ، وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه والدعاء ، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة ، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفارًا أو فجارًا ، فمقاطعتهم في الله هي صلتهم ، بشرط بذل الجهد في وعظهم ، ثم إعلامهم إذا أصرُّوا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى .

وقطع الرحم من الكبائر ؛ لورود الوعيد الشديد فيه .

وعن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ جهارًا غير سر يقول :

« إن آل أبي ... ليسوا بأوليائي ، إنما وليي الله وصالحُ المؤمنين ، ولكن لها رحم أبلها ببلاها » يعني : أصلها بصلتها .

وقال النووي : ضبطنا قوله « بِبَلاها » بفتح الموحدة وبكسرها ، وهما وجهان مشهوران ، وقال عياض : رويناه بالكسر ، ورأيته للخطابي بالفتح ، وقال ابن التين : هو بالفتح للأكثر ولبعضهم بالكسر ، قلت : بالكسر أوجه ، فإنه من البلال جمع بلل ، مثل جمل جمال ، ومن قاله بالفتح بناه على الكسر مثل قطامِ وحذامِ ، والبلال بمعنى البلل وهو النداوة ، وأطلق ذلك على الصلة ، كما أطلق اليبس على القطيعة ؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه ، بخلاف اليبس من شأنه التفريق .

وقال الخطابي وغيره : بللت الرحم ؛ أي نديتها بالصلة ، وقد أطلقوا على الإعطاء الندى ، وقالوا في البخيل : ما تندى كفه بخير ، فشبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بالماء الذي يطفىء ببرده الحرارة ، ومنه الحديث : « بلوا أرحامكم ولو بالسلام »[1] .

قال الطيبي وغيره : شبه الرحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء ، وسقاها حق سقيها ، أزهرت ، ورؤيت فيها النضارة ، فأثمرت المحبة والصفاء ، وإذا تركت بغير سقي يبست وبطلت منفعتها ، فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[2] .

وعن عمر موقوفًا : « ليس الوصل أن تصل من وصلك ، ذلك القصاص ، ولكن الوصل أن تصل من قطعك » .

---

(١) حسن : رواه البزار عن ابن عباس ، والطبراني في الكبير عن أبي الطفيل ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وسويد بن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٥ .

(٢) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد .

قال ابن حجر : قال الطيبي : المعنى ليست حقيقة الواصل ، ومن يعتد بصلة من يكافىء صاحبه بمثل فعله ، ولكن من يتفضل على صاحبه .

وقال شيخنا في شرح الترمذي : المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوع صلة ، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه ، فإن فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل : « ليس الشديد بالصرعة » ، « وليس الغنى عن كثرة العرض » .

وأقول : لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع ، فهم ثلاث درجات : مواصل ، ومكافىء ، وقاطع .

فالواصل : يتفضل ، ولا يتفضل عليه .

والمكافىء الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ .

والقاطع : الذي يُتَفَضَّل عليه ، ولا يَتَفَضَّل .

وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين ، كذلك تقع المقاطعة من الجانبين ، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل ، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئا ، والله أعلم(١) .

○ من عال البنات وأدّبهن ○

قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أمتي يعول ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، فيحسن إليهن إلا كن له سترًا من النار »(٢) .

قال المناوي : كما سترهن في الدنيا عن ذل السؤال وهتك الأعراض باحتياجهن

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٣٧) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٤٨ .

إلى الغير الذي ربما جرّ إلى الخنا والزنا ، وجوزي بالستر من النار جزاءً وفاقًا[١] .

والجزاء من جنس العمل .

قال صلى الله عليه وسلم : « من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن ، كن له حجابًا من النار »[٢] .

وقال صلى الله عيله وسلم : « من ابتلى من هذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن ؛ كن له سترًا من النار »[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى يدركا ؛ دخلت أنا وهو الجنة كهاتين »[٤] .

* * *

(١) فيض القدير (٥ / ٣٦٢) .
(٢) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٠٧ .
(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، عن عائشة .
(٤) رواه مسلم ، والترمذي عن أنس .